قراءة في ومضة "شموخ" لهيفاء حمّاد

د. هيفاء حمّودة، سوريا

شموخ[15]

وجع في الذاكرة. أجزاء مكسورة. لا خنوع. إعادة ترتيب. شجرة سنديان.

يقول محمود درويش: "ذاكرتي همّي".

بدايةً، يطلُّ الراوي في هذه الومضة البصرية من نافذة رؤاه على عالمه الداخلي الشديد الحساسية؛ وهو عالم الذاكرة، ومن خلال هذه الرؤية يتضح لنا أن الومضة تضم خمس حركات سردية، رسمت لنا مكنونات حياتية متكاملة، وذلك من خلال الإطلالة على الذاكرة. فالذاكرة في معالجة مجردة، هي مجموعة الرموز والأحداث الحياتية والتاريخية التي تحكي حياة الإنسان وتمنحه الهويّة. وتُعرَّف على أنها جزء من اللاشعور الجمعي، حيث يجب أن تصل الجماعة إلى المصالحة مع رموزها للوصول إلى حالة الاتزان. كانت الذاكرة من قبل في مصالحة ما مع رموزها ومكنوناتها، ولكن تغيرَ الحال بدخول كائن جديد "وجع" وهي لفظة موفقة تعني (المرض)، وهي لم تقل كلمة "ألم"، لأن لفظة "وجع" هي التي تسبب الآلام. وكأن الكلمة تعبر عن الشيء الأساسي الذي يسبب الآلام، فاختارت باللاشعور

[15] هيفاء حماد. بوح ياسمين. الكتاب الخامس في سلسلة ومضات قصصية. الجيزة: حمارتك العرجا للنشر الإلكتروني، طبعة ثانية. مايو 2015. ص 13.

جذر الألم وهو الوجع. وإذا هناك مرضٌ أصاب الذاكرة الجمعية والفردية، فإننا قد نخمن ما تعنيه كلمة "وجع" وما المقصود فيها هنا، فإذا كان على الصعيد الشخصي الفردي فهو إنساني يدل على معاناة الفرد، وهو جزء من كيان متكامل، وقد يكون همَّاً عاماً يمسّ الوطن، وهنا ربما تحقق الكاتبة سبقاً حسياً جليلاً، وهو أقرب للواقع الذي علينا أن نرصد تطوراته.

في الحركة السردية الثانية، تطالعنا نتائج ذاك الوجع، "أجزاء مكسورة"، وكأن هذه الذاكرة أصابها شيء مفاجئ حطم أجزاء منها، فاستخدمت الكاتبة لفظة "مكسورة" ولم تستخدم اللفظة المعتادة "مهشمة "، وذلك بهدف التعبير عن شدة الحدث، وكأن الراوي الناظر إلى الأجزاء المكسورة قد هاله الحال عند النظرة الأولى، لكنه بعد ذلك تنبه إلى فداحة الحدث، وتسلح بالإرادة القوية القادرة على التحمل والصمود، ليس فقط أمام شيء أكبر من المرض والألم، بل أمام الكسور.

الحركة السردية الثالثة، "لا خنوع" وقد مثّلت شحذ العزيمة، وشحن الإرادة لتخطي مشكلة كبيرة. "لا" هنا أفادت توكيد النفي، لتبتر أي حالة من حالات التراجع عن هدف التخطي، ومع استخدام مصدر الفعل (خنع) (خنوع) للتعبير عن القوة والصلابة وعدم التراجع أو الاستسلام لواقع أليم مرير ربما يأتي على ذاكرة هي بالمحصلة تاريخ ووجود ذاكرة، وهي تعبير عن كيان موجود ربما كانت متصالحة نوعاً ما مع المحيط.

في الحركة السردية الرابعة، "إعادة ترتيب" كنت أُفَضل تماشياً مع "أجزاء مكسورة" أن تنقش كلمة أو لفظة أخرى لا تكرر عبارة إعادة الترتيب بمقدار ما تتناسب مع عبارة الأجزاء المكسورة، لأن الذاكرة ليست مبعثرة فقط بل هي في حالة وجع وعملية ترميم ما تكسر، وهذا لا تكفيه عملية ترتيب. إلا أن التركيز هنا على لفظة (إعادة) جاءت في سياقها بعد الرؤية الداخلية للحدث الكبير الذي هزّ كيان الذاكرة الرمز الذي دل على الخاص والعام، لأن ألم الفرد نابع من آلام الجماعة لتحقيق الوميض الإنساني.

الحركة الأخيرة؛ وهي ذروة الحدث والتصور الكامل التي أرادته الشخصية الرائية في "شجرة سنديان"، نجد تناصاً قوياً مقروناً برمز معرفي عالمي: قوة، صلابة، حنو، شاعرية، ورمزية التشبث بالماضي وشحن الذكريات، ناهيك عن كونها عالية تقترب من الغيم والسحاب، الذي هو رمز من رموز الخلود والصمود، وليس لليأس مكان في قاموسها.

أخيراً؛ لم تستخدم الكاتبة الأفعال، بل اكتفت بالأسماء والصفات، "ذاكرة مكسورة، شجرة سنديان"، إلا أن تسلسل الأسماء كان كافياً لمتابعة الصور، ومتابعة تحرك الحدث بشكل جميل جعلنا داخل تلك الذاكرة؛ ذاكرتنا ربما.

أما العنوان "شموخ"، فهو متناسب مع الحدث، وومضة "شموخ" ومضة قادرة على التميز، لاحتوائها التكثيف والتناص والمفارقة المدهشة، ناهيك عن تضمنها الإيقاع الفني والنفسي والعاطفي، وذخرها بالإيحاءات الدالة على القوة والصلابة.